دور الحوزات العلمية في بناء المجتمع [1]

آية الله العظمى السيد محمد الشيرازي
قدس سره

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين واللعنة الدائمة على أعدائهم إلى يوم الدين

في الإسلام لا تنحصر مسؤولية المسلم في حدود مدينة أو إقليم معين، بل أينما يكون فإنه مكلف بحدود ذلك المكان أيضاً (ألا كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته) فالأمير الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنه والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنه، فنحن عندما كنا في مدينة كربلاء المقدسة كان علينا واجباً أن نعمل ونتحرك ونقوم بالوعي والهداية في مدينة كربلاء حتى تصل هذه المدينة إلى درجة الاكتفاء.

أما الآن ونحن في مدينة قم المقدسة فإن الواجب يحتم علينا أن نقوم بالتحرك والعمل في حوزة قم (عش آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)) المدينة التي ينبغي أن ترتقي إلى مستوى التحدي الحضاري الذي يواجهها من الجهة الكمية والكيفية معاً، فنجعل عدد طلاب العلوم الدينية فيها مثلاً يتصاعد من عشرين ألفاً إلى مائة ألف طالب بل أكثر من ذلك، وذلك لأن الدنيا في الواقع دنيا الأسباب والمسببات هكذا خلقها الله سبحانه حيث قال سبحانه : (وآتيناه من كل شيء سبباً فأتبع سببا)(١).

---

(١) ملاحظة: أخذنا نص هذا الكتاب من الانترنيت موقع الإمام الشيرازي قدس سره، ولابد من مطابقته مع الأصل المطبوع للتأكد من سلامته وعدم التغيير والحذف والتبديل فيه.

ومعناه آتيناه أي (ذي القرنين) علماً يتسبب به إلى ما يريده (فأتبع سبباً) وسلك هذا السبيل سبيل المقدمات والنتائج والأسباب والمسببات، فهذه الدنيا واقع الأمر هي دنيا الأسباب والمسببات لا دنيا العبث والصدفة، ومن هذه الناحية ينبغي علينا فعلاً أن نشعر بالقصور والتقصير الذي يلفنا بعباءته الثقيلة.

فإذا كان هنا في قم المقدسة عشرون ألف طالب، فإن في الباكستان مائة وخمسين ألف طالب تابعون للوهابية المنحرفة، ولنا بعد هذا أن نتصور النتيجة! فستكون أعمالنا وربما تكون بعض نشاطاتنا في مقابل النشاط الوهابي كنهر جارف أمام تيار كبير واسع، وتتضح الحقيقة أكثر لدى أول اصطدام بلغة الأرقام. كما أن الوهابيين في الباكستان فقط يمتلكون إثني عشر ألف مدرسة مجهزة بكل وسائل التعليم والثقافة الحديثة، ونتيجة هذا النشاط ـــ بطبيعة الحال ـــ هو امتداد جذور الوهابية المنحرفة في العالم أكثر وأعمق.

ومما يذكر أن للمسيحيين أربعة ملايين مبلّغ يطوفون العالم ويجوبون البقاع البعيدة والنائية من أجل التنصير.

١ ـــ الكهف : ٨٤ ـــ ٨٥.

الحوزة بين العلم والمجتمع

إنتاج الحوزة

أخيراً أصبح عطاء الحوزات العلمية قليلاً وضعيفاً جداً بالنسبة للعطاء الكبير الذي كانت تقدمه للإسلام والمسلمين في الأزمنة السابقة ولو ألقيتم نظرة دقيقة وفاحصة فستصلون إلى هذه النتيجة وهي أنه لابد أن يكون في قم مائة مرجع تقليد صاحب رسالة عملية في الحد الأدنى كما كان هذا في بعض الأزمنة السابقة.

يقول المرحوم والدي (رض) ظهر في النجف الأشرف وحدها بعد وفاة آية الله السيد محمد كاظم اليزدي (رض) صاحب العروة الوثقى تسعون مجتهداً جامعاً للشرائط من ذوي الرسائل العملية، وإني أتذكر أنه ظهر بعد السيد أبو الحسن الأصفهاني (رض) في العراق خمسة وعشرين مجتهداً صاحب رسالة عملية هذا غير الخطباء والمبلّغين والكتّاب والمحققين وأمثالهم من أعلام الأمة وفحولها...

إذن يجب العمل في هذا المجال بشكل مكثف حتى نحصل على النتيجة التي نهدف إليها.

ربما يسأل سائل أنه ماذا نستطيع أن نفعل بقلتنا القليلة هذه الفاقدة لأبسط مقومات العمل التقني الحديث في مقابل الحافل بالنشاط والعمل والخطط الكبيرة الواسعة والتقنية الحديثة والأموال الطائلة في عالم اليوم؟ وببيان واقعة تاريخية يظهر جواب هذا السؤال.

لا يكلف الله نفساً إلا وسعها

هناك رواية مشهورة جاء فيها ان النار التي أُلقي فيها النبي إبراهيم (عليه السلام) كان يصل شعاع حرارتها من كل جانب إلى فرسخ واحد، ومع ذلك كان التمساح يأتي من بعيد وينفخ لإطفاء النار، وهكذا كانت الضفدعة تحمل بفيها ماءً وتحاول أن ترميه على النار، والعصفور كان يسعى بقدر طاقته والبلبل كان يحمل الماء بمنقاره ويطير في الأعالي ويرميه على النار وإن كان لا ينفع عمل التمساح ولا عمل العصفور ولا فعل

الضفدعة ولا فعل البلبل ولا أثر لأي فعل من فعاله في إطفاء هذه النار اللاهبة الجبارة ولكن كان المهم هو أن يؤدي كل واحد منها واجبه ودوره تجاه إبراهيم (عليه السلام) وإنقاذه من النار ولو بمقدار وسعه وطاقته، وفي الرواية انه بسبب سعي البلبل في إطفاء النار أعطاه الله هذا الصوت الجميل، إذن كل واحد من هذه الحيوانات سعى بقدر طاقته واستطاعته(١) والله تعالى لا يكلف الناس بأكثر من طاقتهم وإمكاناتهم ولا يحاسبهم على أكثر من ذلك (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)(٢)، والسعة هو ما تتسع له قدرة الإنسان وهو فوق المجهود واستفراغ القدرة يقول القائل : ليس هذا في وسعي. أي لا أقدر عليه وان قدرتي لا تتسع لذلك.

إذن، فعلى رجل الدين أن يسعى ويعمل بقدر طاقته واستطاعته حتى تتجمع هذه الطاقات المنفردة لتولد سيلاً من النشاط لتثمر الثمر اللازم وتعطي النتيجة المقصودة في المجتمع الإسلامي.

حالياً يعيش الشيعة في كل العالم تحت الضغوط والتضييقات والأصفاد المادية والنفسية من قبل الظالمين والأعداء، في العراق ولبنان وافغانستان و... وفي العراق فقط مئات الآلاف من الشيعة رجالاً ونساءً يقبعون في الزنزانات والسجون، وعلى الحوزات العلمية مسؤولية إنقاذ هؤلاء المظلومين كل بقدر طاقته يسعى في هذا السبيل على طريق التأليف ونشر الكتب وبيان مظلومية الشيعة في كل العالم وبشتى وسائل التبليغ المختلفة، وإلا فنحن جميعاً مسؤولون أمام الله وأمام هذه المظالم.

مساوئ ترك إعانة المظلوم

ينقل انه كان هناك رجل متقي جداً، ذات يوم وافته المنية فرؤي في المنام وسُئِل عن حاله في القبر وكيف عومل؟

فقال : جاءني ملكان وأخذا يضرباني بالسياط فسألتهما : إني كنت رجلاً صالحاً ومتقياً فما هو ذنبي حتى تضرباني؟

قالا : في يوم وقع مظلوم في يد ظالم وكانت عندك القدرة على نصرته وإنقاذه منه فلم تفعل!!

لذلك يجب العمل في سبيل إنقاذ المسلمين والشيعة في كل العالم، فعلى هذا نحن بحاجة إلى أن نؤسس الحوزة بما لا يقل عن ستمائة مدرسة وهكذا إلى مائة مجلة إسلامية تصل إلى كل أنحاء العالم وبشتى اللغات، فالوهابيّون قد لا يتجاوز أتباعهم الخمسة آلاف فرداً لهم مجلة باسم (المجلة) تصدر في خمس عواصم لأكبر دول العالم وتنشر على صعيد كل العالم وقد رصدوا لتأسيس هذه المجلة نصف مليارد دولار وهكذا باقي المجلات والجرائد الأخرى التي تنتمي إلى الوهابية بشكل أو بآخر وغيرها من المؤسسات التابعة لباقي المذاهب الباطلة الأخرى، فيجب أن يكون لمدينة قم المقدسة التي هي مركز التشيع في العالم الإسلامي فعلاً (بعد أن كبت صدام وحزب البعث الأنشطة الدينية التي كانت تتمتع بها الحوزات العلمية في النجف وكربلاء) شهرياً مائة مجلة وصحيفة تصدر إلى كل العالم وبلغات مختلفة.. فإن الإسلام وعلوم أهل البيت (عليهم السلام) إنما انتشرت وأثارت في بقاع العالم بالقلم والبيان والتبليغ والوعظ والإرشاد والتوجيه المستمر، فمن صفات الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) انه كان (طبيب دوّار بطبه قد أحكم مراهمه، وأحمى مواسمه يضع من ذلك حيث الحاجة إليه : من قلوب عمي، وآذان صم، وألسنة بكم متتبع بدوائه مواضع الغفلة ومواطن الحيرة)(٣).

وهذا أيضاً يتجلى كثيراً في أحاديث أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، فالإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) قال : (رسل الله سبحانه تراجمة الحق والسفراء بين الخالق والخلق)(٤).

وفي كلام آخر له (عليه السلام) قال : (ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلّموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا)(٥).

وهكذا يجب العمل في مدينة قم لتأسيس المكتبات الضخمة والكبيرة لتضم أكبر عدد من الكتب في شتى المجالات، لأننا في هذا المجال ضعفاء جداً، ولتقريب ذلك إلى الأذهان نقل أن في ألمانيا الغربية مكتبة تحتوي على إثني عشر مليون نسخة كتاب، بينما أكبر مكتباتنا اليوم قد لا تتجاوز عدد الكتب فيها على نصف هذا العدد.

أو أن في لبنان ذات الثلاثة ملايين نسمة فيها ألف ومائتين مطبعة بينما في دولة أخرى التي عدد نفوسها عشرين ضعف نفوس لبنان ليس فيها من المطابع إلا القليل القليل.

رجال القدوة الحسنة

إذن، المسألة الأخيرة التي يجب الإشارة إليها هي كيفية الحوزة حيث يجب أن تتهذب النفوس حتى يكون طلاب العلوم الدينية أسوة ونماذج لعصرهم لأن فضيلة الإنسان إنما هي في طهارة النفس وتزكيتها، والإسلام الذي وصل إلينا إنما كان من أثر الفضائل النفسانية للنبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة الطاهرين (عليهم السلام) لأن أي قائد إسلامي يجب أن يتحلى بأكبر ما يمكن من الخلق الرفيع والمعاملة العطوفة المحببة مع الناس لكي يجلبهم إلى نور الإسلام، أو يبقيهم في الإسلام فإن أفضل وأسهل وأسرع وأعمق العوامل لزرع المحبة في القلوب هي الأخلاق الفاضلة والمعاملة الإنسانية العطوفة مع الناس، هكذا كان يتعامل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مع مجتمعه وأصحابه، وهكذا أيضاً سار على نهجه الأئمة المعصومين (عليهم السلام) وأصحابهم البررة أمثال سلمان وأبو ذر وهكذا العلماء الصالحين. ومن الشواهد على ذلك : عندما اشتد أذى المشركين للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم أحد إذ قُتل عمه الحمزة (عليه السلام) ومُثِلَ بجسده الشريف، وقطع كبده، وأصابع يده، ورجليه، وجدع أنفه، وصملوا أذنيه.. وفعل به ما فعل، وقتل العشرات من المسلمين فتقدم بعض الصحابة إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) واقترح عليه أن يدعو عليهم ليعذبهم الله بعذاب من عنده كما كان يعذب المشركين الأولين بدعوة أنبيائهم عليهم، لكن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وسياسة العفو العظيمة امتنع من ذلك فقال : (إني لم أبعث لعّاناً.. ولكن بعثت داعياً ورحمة).

١ ــ هذه المذكرات شاهد على الحقيقة التي نريد إثباتها وهذا المثال من باب بيان المعقول بالمحسوس.

٢ ــ البقرة: ٢٨٦,

٣ ــ نهج البلاغة لمحمد عبده: ج ١ ص ٢٢,

٤ ــ غرر الحكم.

٥ ــ نهج البلاغة لمحمد عبده: ج ٣ ص ٢٦٦.

مثال من الصحابة

سلمان وبساطة العيش

روي بأن سلمان المحمدي (رض) عندما وُلِّيَ على المدائن(١) دخلها و لم يعرفه أحد من أهل المدينة بسبب بساطته في معيشته وملبسه وتهذيبه لنفسه ولأنه كان منفرداً عندما دخل المدينة لم يجلب معه أي خادم أو أعوان(٢) وعندما عرفه الناس بأنه سلمان تعجبوا كثيراً بأنه كيف يكون الوالي على المدائن زاهداً وبسيطاً في معيشته وحياته ولا يعتني بالدنيا قيد أنملة و لم يتغير سلمان في فترة ولايته على المدائن عمّا كان عليه قبل ذلك فكان يلبس الخشن ويذهب في حاجاته ماشياً غير راكب ويشتري وسائل بيته وما يحتاج إليه بنفسه ويأكل شيئاً قليلاً وبسيطاً. وذات يوم كان في السوق رآه أحد الناس فلم يعرفه وكان هذا الرجل قد اشترى ما يحتاج إليه وامتلأ زنبيله فقال لسلمان أحمل عني هذا الزنبيل إلى بيتي! فجاء سلمان بكل حلم وتواضع وحمله وذهب مع الرجل إلى بيته، وفي أثناء الطريق عرفه رجل فسلّم عليه وقال يا أمير المدائن إلى أين تذهب بهذا الزنبيل المملوء؟ فأدرك الرجل الأول إلى أنه استخدم سلمان والي المدائن وحاكمها فتأثر كثيراً وخجل من عمله هذا فقال لسلمان معتذراً : يا أمير اجعلني في حل، فإني لم أعرفك، ولكن سلمان مع ذلك أوصل زنبيل هذا الرجل إلى بيته.

نعم لما كان أهل المدائن قد رأوا حكومة الساسانيين وحكامهم ولمسوا منهم حبهم للدنيا وتكالبهم عليها واقتنائهم للخدم والعبيد والوصائف ورأوا رياشهم وترفهم وعندما رأوا طريقة معيشة سلمان وبساطتها يوماً فيوماً يعتقدون بالإسلام ونظامه أكثر فأكثر ويترسخ ذلك فيهم.

من الإمام إلى تلميذه

ولا عجب في ذلك فإن سلمان فرع من مدرسة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) التي لم تكن الدنيا بأجمعها وبكل زخرفتها وزبرجها تساوي عنده أكثر من جناح بعوضة وأمثالها.

وما كان أهون عند علي بن أبي طالب (عليه السلام) من الدنيا وما فيها فالمال والحكم والسلطة والفرش واللباس والقصور والأكل والشرب كلها عند علي (عليه السلام) لا شيء و لم يكن يستعمل شيئاً منها إلاّ بمقدار الحاجة الضرورية، ولعل أعمق مثال للدنيا في منظار أمير المؤمنين (عليه السلام) ما جاء عنه (والله لدنياكم هذه أهون في عيني من عراق خنزير في يد مجذوم)(٣).

عراق خنزير في يد مجذوم.

الخنزير لا يرغب فيه فكيف بعروقه.

والمجذوم لا يرغب في ما بيده ولو كانت الدنيا برمتها، لأن الدنيا برمتها لا تسوي عدوى الجذام الأكيد.

فكيف بِعِرْقٍ من خنزير وفي يد مجذوم؟!

من يرغب في مثل ذلك؟!

الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) يعتبر الدنيا أهون من ذلك وجاء في رواية أخرى انه دخل أحد الأصحاب على الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) في أيام حكومته وخلافته على أكثر من خمسين دولة على خارطة اليوم فرآه جالساً على حصيرة صغيرة نظيفة و لم يكن في البيت شيء آخر، فقال متعجباً : يا أمير المؤمنين هذا بيت المال في يدك لماذا تترك بيتك خالياً من الأثاث؟

فقال (عليه السلام): لا يجمع العاقل الحطام في بيت لا يبقى فيه إلى الأبد (يعني الدنيا) والبيت الذي أجمع له الأثاث الحسن والجيد هو البيت الذي سأنتقل إليه (يعني الآخرة).

١ ــ المدائن (سلمان باك حالياً) وتقع جنوب بغداد على مسافة (٣٠) كم.

٢ ــ على خلاف الولاة والحكام الآخرين الذين إذا نصّبوا حكاماً أو ولاة على مدينة ما يتوجهون إليها بكامل وسائل التجليل والبخبخة والأبهة ومعهم الأعوان والخدم.

٣ ــ نهج البلاغة (شرح محمد عبده): ج ١ ص ١٩٧.

أهمية الحوزة العلمية في القرآن والسنة

أهمية العلم في القرآن

(وما كان المؤمنون لينفروا كافّة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون)(١).

الابتعاد عن الغفلة:

(ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ أولئك هم الغافلون)(٢).

(إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون)(٣).

نشر العلم ومحاربة الجهل

(ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم)(٤).

(ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكراً للمتّقين)(٥).

(وما أرسلنا من رسولٍ إلاّ بلسان قومه ليبين لهم..)(٦).

(هو الذي بعث في الأميّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين)(٧).

أهمية العلم في أحاديث المعصومين عليهم السلام

قال الإمام أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام):

(المتعبّد على غير فقه كحمار الطاحونة يدور ولا يبرح)(٨).

قال الإمام الصادق (عليه السلام):

(لو أتيتُ بشابٍ من شباب الشيعة لا يتفقّه لأدّبته)(٩).

قال الإمام الكاظم (عليه السلام):

(تفقهوا في ديـــــن الله فإنّ الفقه مفتـــــاح البصيرة وتمـــــام العبادة والـــــسبب إلى المنازل الرفيعة والرتب الجليلة في الدين والدنيا..)(١٠).

الابتعاد عن الغفلة

قال الإمام أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام):

(احذروا الغفلة فإنّها من فساد الحس)(١١).

قال الإمام السجاد (عليه السلام) في دعائه:

(... نبهني من رقدة الغافلين، وسنةِ المسرفين ونعسة المخذولين...)(١٢).

قال الإمام الصادق (عليه السلام):

(إيّاكم والغفلة فإنه من غفل فإنّما يغفل عن نفسه...)(١٣).

القدوة الحسنة

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):

(... بالتعليم أرسلت)(١٤).

قال الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام):

(.. فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته... ويثيروا لهم دفائن العقول)(١٥).

وقال الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام):

(... وإنّ محمداً عبده ورسوله أرسله بالحق ودين الهدى ليزيح به علتكم وليوقظ به غفلتكم..)(١٦).

وورد أيضاً عن الإمام أميرالمؤمنين (عليه السلام):

١ ــ (العلم خيرُ دليل).

٢ ــ (العلم أفضل هداية).

٣ ــ (العلم يرشدك إلى ما أمرك الله به والزهد يسهّل لك الطريق إليه).

٤ ــ (ثروة العلم تنجي وتبقى).

٥ ــ (فكرك يهديك إلى الرّشاد ويحدوك(١٧) على إصلاح المعاد).

٦ ــ (نعم دليل الإيمان العلم)(١٨).

فضل العالم على الجاهل

قال الإمام أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام):

(ركعتان من عالمٍ خيرٌ من سبعين ركعة من جاهل لأن العالم تأتيه الفتنة فيخرج منها بعلمه وتأتي الجاهل فتنسفه نسفاً..)(١٩).

عن الإمام الصادق (عليه السلام) فيما رواه عن آبائه عن رسول الله (صلى الله عليه وآله):

(أكثر الناس قيمة أكثرهم علماً وأقلّ الناس قيمة أقلهم علماً)(٢٠).

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله):

(يا علي ساعة العالم يتّكي على فراشه ينظر في العلم خيرٌ من عبادة سبعين سنة)(٢١).

عن الإمام العسكري (عليه السلام) : قال محمد الباقر (عليه السلام):

(العالم كمن معه شمعة تضيء للناس، فكل من أبصر شمعته دعا له بخير. كذلك العالم مع شمعةٍ تزيل ظلمة الجهل والحيرة..)(٢٢).

أخيراً أسأل الله تعالى أن تتقوى الحوزات العلمية الشيعية في العالم، وأن يوفقنا سبحانه أن نتأسّى بالنبي الأكرم (ص) والأئمة الأطهار (ع) في حياتنا وأعمالنا لنكون أسوة صادقة للمسلمين نقودهم إلى جادة الحق والصواب والسعادة الدائمة في الدنيا والآخرة.. إنه سميع مجيب.

١ ــ التوبة: ١٢٢,

٢ ــ الأعراف : ١٧٩,

٣ ــ يونس : ٨٠٧,

٤ ــ البقرة: ١٢٩,

٥ ــ الأنبياء: ٤٨,

٦ ــ إبراهيم: ٤,

٧ ــ الجمعة: ٢,

٨ ــ الاختصاص : ,٢٣٨

٩ ــ البحار: ج ١ ص ,٢١٤

١٠ ــ تحف العقول: ,٣٠٢

١١ ــ غرر الحكم: ,٧٢

١٢ ــ الصحيفة السجادية: الدعاء ,٤٧

١٣ ــ ثواب الأعمال: ,٢٤٢

١٤ ــ منية المريد: ,١٦

١٥ ــ نهج البلاغة لمحمد عبده: ج ١ ص ,١٧

١٦ ــ بحار الأنوار: ج٦٦، ص,١١٧

١٧ ــ يحدوك : يحثّك (من حدي الإبل).

١٨ ــ غرر الحكم ودرر الكلم: ص ,٦٣

١٩ ــ البحار : ج ١ ص,٢٠٨

٢٠ ــ أمالي الصدوق: ,١٩

٢١ ــ عدة الدّاعي: ,٦٦

٢٢ ــ البحار : ج ٢ ص ٤.